الأصل وغيره

بقلم ابرهيم عبد القادر المازنى

أرانى أحد الإخوان رواية لكاتب انجليزى معاصر اسمها « مذنبون بكرههم » وقال اقرأها . وقد اقتنيت نسخة منها ، ولكنى ما زلت محجما عن قراءتها وإن كان قد مضى يومان وهى على مكتبي تخايلنى كلما جلست إليه . وأحسب أن فى اسمها مايصدنى عنها . ولست أعنى أنى أكره القصص التى تتناول الخطيئات والذنوب والآثام ، فقلما تخلو رواية من شىء من ذلك ، بل يندر أن تخلو حياة من هذا ، فإن العصمة « عليا مراتب الأنبياء » وإنما أكره ما يبدو لي من النفاق أو المغالطة أو الجهل أو المداجاة فى هذا الاسم . ولو قال إنهم أخيار أو أطهار أو طيبون بكرههم لكان أشبه بالحق . فإن رأيي أن الانسان مطبوع على ما نسميه الشر ، وليس بمفطور على ما ألفنا أن نسميه الخير وما إلى هذين من صفات قبيحة وطيبة . والذى نعده خيراً ليس أكثر من عادة أو ضرورة ، ولكن الذى نقول إنه الشر أصل . وقد صدق النّواسى فى قوله :

أنت يا ابن الربيع أزمتنى النســـك وعودتنيه ، والخير عاده

وقد سألت نفسى غير مرة لو كنت ، ومى ابنى — والأبناء فيما يعرف الناس ويحسون أفلاذ أكبادهم — فى صحراء جرداء لا ماء فيها ولا شجر ، ولم يبق معنا من الزاد إلا كسرة ، ومن الماء إلا قطرة ، وبرح بنا الجوع والظمأ ، فماذا كنت عسى أن أصنع ؟؟ أأوثره على نفسى ، أم أوثر نفسى عليه ؟

وآثرت الاخلاص وصدق السريرة فى الجواب فقلت إن أول ما كان خليقاً أن يدور بنفسى هو أن أوثر نفسى على ابنى ، ولعلى حقيق إذا تقلت وطأة الاحتمال علىّ أن أقاتله على اللقمة أو قطرة الماء . ومهما يكن من ذلك فان المحقق عندي — فيما أشعر وأعلم — هو أن الخاطر الأول يكون هكذا ، أى أن تحدثنى نفسى بالاستئثار دون ابنى بما بقى لنا . وقد يتغلب العقل وعادة الكبح والنظام الذى نجرى عليه فى حياتنا المتحضرة . فيحدث أحد أمرين مثلا : أن يكون الباقي مما يحتمل القسمة ، فاقترح اقتسامه ومن يدرى؟ لعلى وأنا أكسر اللقمة الباقية أجور عليه فى القسمة؛ وإذا كان الأمر لا سبيل فيه إلى مشاركة ، فقد أقولى لنفسى إن من قلة العقل أن أخطف الكسرة والماء فأطيل بذلك عمرى ساعات ، وما يبدو لنا أمل فى نجدة قريبة ، وأنا قد عشت أكثر مما عاش ، وسيقضى كلانا نحبه فليس بضائرى أن يبقى بعدى ساعات ؛ وهب ناساً أدركونا وأنقذونا فان الباقى من عمرى دون الذى مضى وانقضى ، وهو على كل حال شيخوخة وتهدم ، وأمراض وعلل ، وأوصاب وعجز ، فما حرصى على ذاك ؟ ولكن هذا صغير ولا يزال أمامه شباب طويل وريف ، فهو أولى بالحرص على الحياة والتعلق بها وأحق بذلك منى ، وقد أكره أن يرى أثرتى وقبحها وشناعتها ، وأخاف أن يعرف ذلك عنى بوسيلة ما ، فأناوله الماء وأجود عليه بالخبزة الناشفة ، وأتظاهر بالرحمة ، وأتكلف الايثار وأقول له : إنك ابنى وفلذة كبدى ، فبقاؤك استمرار لحياتى وامتداد

وفى الدنيا عشاق مجانين غير قليلين وقد يهم الواحد منهم بالانتحار إذا ضنت عليه حبيبته بابتسامة أوأعرضت عنه فى مجلس ، أو أبت عليه قبلة وضمة . خذ هذا العاشق الولهان ، المدله ، المزدهف اللب ، الشموف القلب ، وأجلسه إلى جانب حبيبته المعبودة فى البرد القارس والمطر المنهمر ، وانظر ماذا يحدث ؟ أتظن أنهما يتناجيان فى تلك الساعة بحبهما ؟ ؟ أتراه يشتهى حينئذ أن يقبلها أو يضمها ، أو يبالى ابتسامها أو إعراضها ، أو يحفل ما يكون من ذلك منهـا ؟ بل سل نفسك أيخطر له الحب وهو ينتفض من البرد والمطر ويرعد ؟؟ وقد يندفع بحكم العادة فيخلع سترته ويضعها على كتفى المحبوبة المعبودة ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا وهو كاره له ، وساخط عليه ، وناقم على الضرورة التى تدفعه إلى ذلك . ويزداد البرد مع طول الجلسة ، ويعانيان منه مالا طاقة لهما به ، فلا يبقى لهما هم إلا فى هذا وفيما يمكن أن يصنعا لاتقاء عواقبه ، أو النجاة منه ، ويذهب الحب وتذهب دواعى الانتحار ، وتهبط قيمة ذلك كله إلى الصفر . فليت العشاق الذين يسلب الحب عقولهم ، يكابدون شيئا من هذه المكاره ليعلموا أن فى الوسع أن يقل احتفال المرء بابتسامة حبيبته ، وتفتر الرغبة فى ضمها وتقبيلها ، بل إن فى الوسع أن يحيا بغير هـذه الحبيبة ، ولا يفكر فيها ،

ودع عنك الانتحار من أجل قبلة أبتها عليه !

وهذه الشجاعة ماذا هى ؟ إن الأصل فى الانسان الجبن لا الشجاعة ، لأن غريزة المحافظة على الذات تقضى بذلك ، ولكنه يتشجع ، ويحتمل التعرض للمكاره أو المعاطب ، ويلقى بنفسه فى المهلكة ، مرغما ، فقد يكون الذى يفر منه شرا مما يرى نفسه عليه ، أويكون فى الجبن الهلاك فيستوى الأمران ، وإذن تكون الشجاعة أولى ، وأجلب لحسن السمعة وطيب الأحدوثة ، ففيها حتى مع الهلاك عزاء أدبى . أو يكون الموقف من شأنه أن يورط المرء فلا يبقى مفر من الاقدام ، والأمر معه . وقد يكون المرء ضعيف الخيال ، أو قليل الادراك فهو لا يحسن أن يقدر الأمور ، ولا يبالغ فى توهم الاخطار وتجسيدها ؛ أو يكون على نقيض ذلك كبير العقل واسع الخيال ، فلا يرى بأسا من الجرأة لأن فرص النجاح أو السلامة كفرص الاخفاق والتلف ، أو أكثر ، إلى آخر ما يمكن أن يكون باعثا للانسان على مقاومة الحرص الطبيعى على الحياة والضن الفطرى بها

ولا أعرف ما شأن غيرى ، ولكنى أعرف نفسى على قدر ما يتيسر لى ذلك ، وأعلم أنى أشتهى كل ما يُشتهى فى الحياة ، وإذا كنتُ لا أواقع كل لذة أشتهيها ، أو أطلبها ، أو أحلم بها ، فما هذا منى عن عفة فطرية ، وزهد فى طباعى ، فان لكل حالة من حالات الحرمان علة لا تخفى علىّ ، ولا أستطيع أن أغالط نفسى فيها ، وإن كنت أغالط الناس ، ولو سألنى ربى — كما سيسألنى بعد عمر طويل — لأقررت بذنوب لم أقارفها ، وخطايا لم أرتكبها ، وشهوات تبحث نفسى عنها ، أو استعصى علىّ إرضاؤها ، ولطال بى الاعتراف ، والخلائق ورائى تنتظر دورها تحت الشمس المحرقة فى تلك الساعة التى تذهل الأم عن ولدها ، فأشفق عليهم ، وأوجز وأقول إن ربى أدرى بى وأعرف بالظاهر والباطن ، فلا حاجة إلى الافاضة فى الاعتراف . وإنى ، على الجملة ، ومع تفاوت واختلاف قليلين لكما قال السمير رحمه الله :

فترانى طول عمرى تائبا من غير عفة
فلا نجاة لنا إلا برحمة من الله ومغفرة .

ابراهيم عبد القادر المازنى

عود الى الموضوع

الدين والأخلاق

بين القديم والجديد

لأحد أساطين الأدب الحديث

— ٢ —

لو أن الأستاذ النمراوى قصر حديث الدين والأخلاق على الرافعى لكانت حجته أقوى ، ولكنه وقع فى خطأ منطقى إذ حسب أن جميع أدباء المذهب القديم قد راعوا حرمة العرف والتقاليد وآداب الدين وأخلاقه كما راعاها الرافعى . فكأن حجته مقسمة حسب التقسيم الذي يُستشهَدُ به فى الخطأ المنطقى : هى أن الرافعى راعى حرمة أخلاق الدين ، والرافعى من أدباء المذهب القديم ، فنستنتج من ذلك أن المذهب القديم يراعى حرمة أخلاق الدين . وهذا الاستنتاج كاستنتاج من يقول : الفيل له خرطوم ، والفيل حيوان ، فكل حيوان إذاً له خرطوم . وقد ظهر هذا البرهان المنطقى فى أكثر من مكان فى مقالات الأستاذ النمراوي ولا سيما فى المقال الأخير . انظر إلى قوله (فالمسألة فى الأدب إذاً ليست مسألة لفظ ومعنى ولكنها فى صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، ولا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقى فى ذلك من لذة وألم أو غيرها من ألوان الشعور ؛ وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة .. إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه الأدب الجديد ... وأدب الفريق الثانى هو ما يسمونه بالأدب القديم ...)

ومن الغريب أن عدد الرسالة الذى كتب فيه الأستاذ النمراوى هذه الجملة فيه مقال للأستاذ خلاف يشير إلى كتاب يتيمة الدهر للثعالبى وإلى غيرها من كتب الأدب القديم ، ونستشهد منه بالجملة الآتية : (ومنذ أن قال امرؤ القيس أقواله الفاحشة فى المرأة ، ونظم الفرزدق وجرير الشتائم والسباب ، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما فى معانى الشذوذ والضعف الخلقى ، وامتلأ العصر العباسى الثانى بالتفنن فى تسجيل الصور الدنيئة من حياة